ليتنا ما ألتقينا

قصي محمد الرمو

ليتنا ما أتقينا

رواية

تأليف: قصي محمد الرمو

للتواصل مع الكاتب على مواقع التواصل الاجتماعي

فيسبوك: قصي محمد الرمو

تويتر: قصي محمد الرمو

أنستغرام:

@iamqusay_13

أهداء

إلى من ذاق حلاوة الحب

وتجرع من ألم فراقه سنين

مقدمة:

ليس بالضرورة أن كل ما تراه من مشاعر من شخص أخر يعني أنك ترى شكله الحقيقي

هنالك أشياء لا تظهر إلا بعد مرور فترة من الزمن ، وراقب المواقف دائماً فهي الكاشف الحقيقي لطبيعة من هو أمامك

"وحدن بيبقوا متل زهر البيلسان

وحدهن بيقطفوا وراق الزمان"

على أنغام فيروز، كان يقف خالد، وينظر من نافذته، وهو يرى المطر يتساقط في بيروت، ويمسك بفنجان قهوته، والعقل سارح في عالم التفكير.

- ترى أين الآن؟ هل وجدت ذلك الشخص الذي جعلها تنسى من أنا؟

في كل ليلة ممطرة كان يردد خالد هذا الكلام، كأنه يكلم أحد، ويرجو منه رد، ترى هل سيحقق القدر له هذه الأمنية؟

"يا ناطرين التلج

ما عاد بدكن ترجعوا

صرخ عليهن بالشتي

يا ديب بلكي بيرجعوا"

منتصف الليل، والأضواء مشتعلة، ولكن أضواء روح خالد قد أنطفأت، فلم يعد ذلك الشخص المرح الضحوك، سيطر الحزن على قلبه، واليأس على روحه، لم يبقى عنده أمل للعيش، فمن كان يستحق أن يعيش لأجله قد ذهب.

وضع رأسه على الوسادة، التي كانت مبللة، لم تكن في الخارج وأمطرت السماء عليها، وإنما كانت أمطار عينه، حينما نام ليلة البارحة.

تلك الدموع وتلك الليلة الممطرة جعلته يعود برحلة في أعماق ذاكرته، إلى ما مضى أيامه و من ذكرياته، تتأرجح بين السعادة القليلة، والحزن المفرط، سنين الحرب، أموات و أشلاء، قذائف وجثث مبعثرة، حبٌ لم يتكلل بالنجاح، كان ذلك الشيء هو أكثر ما يشغل فكره.

*****

الساعة الثامنة والنصف صباحاً بتوقيت دمشق اليوم الأول لخالد في جامعة دمشق، نظر إلى شاشة هاتفه ليجد نفسه قد تأخر، وقد غرق في نوم عميق نتيجة سهره في الليلة الماضية، نهض من فراشه، كان أول وجه قابله كانت والدته، قال لها:

- لماذا لم توقظيني لكي أذهب إلى جامعتي؟ ألا تعلمين أنه يومي الأول في الجامعة؟

- ألا تقول صباح الخير لأمك؟ هكذا تستيقظ من نومك و تبدأ بالصراخ والزعل

- أنا اعتذر أمي ولكنني مرتبك، وكنت أريد أن أذهب باكراً إلى الجامعة

- لقد أعددت لك الأفطار كُل لقمة على الأقل قبل أن تذهب

- لا استطيع أريد الوصول باكراً، سأكل شيئاً هناك حينما أصل، فقط أدعو لي أن أُوفق في اختصاصي و دراستي

- ليوفقك الله يا فلذة كبدي، يا حبيبي .

قبل يد أمه قبل الخروج ، وهو يحاول تعديل لباسه، وشعره، ينظر إلى ساعة هاتفه بين الحين والآخر ليتأكد من أنه سيصل في الموعد المحدد.

ها هي الجامعة لقد وصل وهو يلهث، و كأن الوحوش كانت تجري خلفه، دخل كلية الآداب، يبحث عن قاعة آداب اللغة العربية، لطالما كانت اللغة العربية معشوقته دوماً، وهو الآن يحقق حلمه، ويدرسها بقي عليه السعي و النجاح فيها، دخل المحاضرة وهو أكثر الطلاب حماسةً، وفي منتصف الوقت دق باب القاعة بصوت خافت، دخلت تلك الفتاة، وقالت:

- صباح الخير دكتور هل تسمح لي بالدخول؟

- صباح النور بالطبع أنه اليوم الأول لكم، لازلتم سنافر لا نستطيع أن نعاتبكم

تعالت أصوات الضحات من قبل الحاضرين، مما جعل تلك الفتاة تشعر بالخجل، بلباسها البسيط وحجابها الجميل، ووجهها الذي ربما لم يعرف يوماً ما هي مسايحق التجميل، جمال رباني لم يعد لمثيله إلا قلة قليلة، دخلت وهي منحنية الرأس، لتجلس بهدوء، و كأنها صنم أصم.

كل ما حدث لم يجعل خالد يشتت أنتباهه، أو ينظر حتى إلى ما يجري حوله، كان ليس من الأشخاص تجذبه تفاهات من هم بنفس سنه.

محاضرة تلو الأخرى، حتى أنتهى كامل الوقت المخصص للدراسة، عاد إلى المنزل يحمل حقيبته على كتفه، يترنح بمشيته تعباً من اليوم الأول له الذي لم يكن سهلاً كما توقع هو، وصل إلى المنزل منهكاً جلس مع والديه يتناول الغداء الذي كان متأخر بسبب أنتظاره، يحب والده أن يكونوا مجتمعين على سفرة واحدة دون نقص أي فرد، عاد إلى سريره، فتح الأنترنت، أرسل أليه صديقه عامر رسالة يطمئن فيها على حاله، وكان عامر هو رفيق الطفولة لخالد، وقد تشاركا حب اللغة العربية، فقال خالد:

- هل رأيت تلك الفتاة التي وصلت متأخرة اليوم ونحن في المحاضرة؟

- فتاة؟ أي فتاة! لقد كان تركيزي منصباً على الدكتور، وما يقوله

- يا لك من غبي، لقد فوت على نفسك النظر إلى أجمل فتاة قد تراها في حياتك

- ألا تمل من الحديث عن الفتايات، ألا تريد التركيز في دراستك و تتركني و شأني

- حسناً أيها المغفل سأتركك أذهب إلى فتياتي لأتحدث عنهن لشخص يفهم ليس مثلك أحمق

- غبي! وداعاً.

جلس يتأمل السقف مفكراً بكلام عامر، هل حقاً كان هنالك فتاة جميلة؟ لم أكن أرى أي شيء، حسناً لن تذهب تلك الفتاة إلى المريخ سأراها في الغد.

أستيقظ في اليوم التالي، و ذهب إلى الجامعة ولكن كانت غايته مختلفة هذه المرة، أصبح تفكيره يتمحور حول تلك الفتاة، هل هي فاتنةٌ لذلك الحد الذي تحدث عنه عامر، وصل إلى القاعة، يقلب نظره يميناً و يسار بحثاً عن تلك الحورية الهاربة من الجنة،

- عفواً، هل تسمح لي بالدخول؟

نظر إلى تلك المتكلمة من خلفه وهو يميل رأسه، بقي لبعض ثواني وهو يتأمل هذا الكيان الملائكي

- هل يمكنك الأبتعاد عن الباب كي أدخل!؟

كررت السؤال وكأنه أحس بصفعة على وجهه، قطعت له نظرة التأمل،

- بالطبع، يمكنك أن تتفضلِ

- شكراً

أعاد نظره إلى زملائه الذين ينظرون بدهشة لما حصل، وكأنها لقطة رومانسية هاربة من أفلام هوليود.

جلس في مكانه المعتاد غير مبالي لنظرات من حوله، أكمل دراسته بشكل طبيعي دون حتى أن يلتفت إليها، عاد إلى المنزل كالمعتاد، ولكن كانت عيون تلك الفتاة هي محط أهتمام تفكيره، أنها المرة الأولى التي يفكر في فتاة في حياته و قلبه يخفق بسرعة غير معتادة،

"تباً لك يا عامر، لقد حولت أفكاري إلى ما يشتتني عن أحلامي"

أكمل أيامه بشكل طبيعي، ولكن هناك وقت قليل يتذكر ذلك الموقف....

اليوم..

اليوم الأخير، و الامتحان الأخير، ها هو على أعتاب التخرج من الجامعة و التخصص الذي كان يحلم به طوال سنينٍ طوال.

ربما حان الوقت المناسب لأعترف لها ما كان يدور داخلي طول هذه السنين اليوم أصبحت مستعداً للأعتراف، لقد كان يضمر الحب و الأعجاب في صدره ، خوفاً من ضياع حلمه، وكان صاحب كبرياء لا يكسر، ربما كان السبب لعدم أظهاره أي مشاعر أو حتى نظرات إعجاب، وقف ينظر إليها ذات النظرة التأملية التي رآها للمرة الأولى، يا إلهي لم تتغير هذه الفتاة طوال تلك الأعوام، بل كانت تزداد جمالاً فوق جمالها، ترى ما سر ذلك الجمال؟، ما سر ذاك الوجه الذي يزداد أشراق؟، ما سر ذلك الهدوء؟، وتلك الابتسامة التي فيها شيء من الانكسار؟.....

آالاف الأسئلة التي كانت تدور في ذهنه، دون حتى جعل أحد بأنه يفكر مجرد التفكير فيها،

ودعت صديقتها الوحيدة محاولةً الذهاب إلى منزلها، الذي كان دوماً سبب تأخرها عن محاضراتها،

ذهب يمشي خلفها دون أن تحُس به يمشي ورآها، يقترب شيء فشيء منها محاولاً الوصول إليها، فتزداد نبضاته كلما أقترب إليها، استجمع قواه وناداها بصوته الخشن النابع من رجل لم يعرف ما معنى أن ينادي فتاة رقيقة مثلها.

ـ فاطمة

نظرت خلفها متفاجأةً مما رأته لذلك الشاب الذي يقف الآن أمامها بطوله الفارع جسمه النحيل، وجهه الحنطي، لحيته الكثيفة، شعره الخفيف، نظراته الحادة.

شعرت بالخوف قليلاً فكانت تلك المرة الأولى التي يلحق بها شاب، حاولت النظر في عينيه والرد عليه، ولكن نظراته كانت أقوى من أن تضع عينها في عينه، طأطأت رأسها قليلاً، ردت مجاوبتاً:

- نعم تفضل يا خالد

- تعلمين يا فاطمة و نحن اليوم على أعتاب التخرج، بأن الساكنين لا يلتقيان في اللغة العربية، فكيف لو كانوا بشراً؟، يا فاطمة إن الإنسان يملك قلباً واحداً، أنه يهب قلبه إلى من يستحقه، ومن غيرك يستحق هذا القلب..

تحول ذلك الوجه الأبيض إلى وجه شديد الأحمرار، وكأن كل قطرة دم في جسدها تجمعت في وجهها، لم تعد تعرف ما الذي تفعله في هكذا موقف، لقد كانت المرة الأولى التي تعيش هذه اللحظة، حاولت الكلام، ولكن لسانها المتلعثم لم يسعفها لتلقي أي كلمة

- يا فاطمة إني أُحبكِ...

*****

أستقيظ من نومه وهو يشعر بالفزع تباً لتلك الذكريات، إن أسوء ما يعيشه الإنسان أن يكون بذاكرة قوية.

لبس ثيابه لكي يذهب إلى العمل، و أي عمل هذا ليس سوى عبودية، ولكن بطريقة رايقة و حديثة، عملٌ لا يكفي أجره سوى مأكل و مشرب، وسكن في غرفة خانقة كأنها سجنٌ أنفرادي، ذات الوجوه، ذات الأشكال التي يتصبح بها كل يوم ، أشعر بالأختناق كلما هاجت تلك الذكريات برأسي، ليت لو أن هناك دواء للنسيان،

مضى في طريقه إلى عمله وهو يفكر في تلك الذكريات المقيتة، يصل إلى المدرسة التي لا يهتم أحد فيها باللغة العربية، وكأنهم نسوا بأنها لغتهم الأم، ولا يوجد أمة في هذه الأرض تتنصل من لغتها أكثر من العرب ، وكأن اللغة العربية بها ضعف أو نقص، فلو كان كذلك، لما أنزل الله سبحانه وتعالى قرآنه الكريم بهذه اللغة العظيمة، ليكرم بها خاتم أنبيائه محمد عليه الصلاة و السلام، سحقاً لأمة تنظر إلى لغتها بمقت وكراهية....

أنهى دروسه كعادته، وعاد إلى المنزل متعباً، يدخل البيت وحيداً، لا يوجد أحد بالداخل ينتظره، وحيدٌ تماماً، جلس على طاولته، وأخرج شطائره من حقيبته، تناول قليلاً منها ووضع ما بقي منها في الثلاجة، شغل التلفاز ،وأمسك جهاز التحكم، يقلب بين قنواته، لا شيء سوى الأخبار السيئة،

سوريا....

أيها البلد الجريح، متى ستتوقف شلالات الدم فيك، هل دمائنا تروق للأرض حتى تطلب المزيد لتروي عطشها للدماء، تُرى إلى متى ستظل الحروب والنزاعات رفيقة بلداننا، فهذا العراق لا زال بجراحه لم يشفى منها بعد، أم السودان، اليمن، ليبيا، الصومال المنسي،

أم فلسطين، آه يا جرح طال نزفه، يا غصة السنين، إلى متى يا رب نظل هكذا، يا رب أعد إلينا نعمة الأمان في بلداننا ، يا رب أنك القدير على كل شيء فلا تخيب دعائنا

******

مستلقياً على سريره، يضع يداه خلف رأسه، يقول في نفسه

"متى سترد فاطمة لي الجواب، كم أكره الانتظار"

لست وحدك يا خالد من يكره الانتظار، لم يكن يوماً الانتظار جميلة ، دوماً سيئ في كل حالاته و في كل أشكاله، خرج من غرفته متوجهاً ساحة البيت الواسع، ورغم وسعها إلا أنه يشعر بضيق في نفسه، كان الضيق بصدره ليس بالمكان الذي فيه...

- هل تريد أن تشاركني القهوة؟

كان ذلك صوت والده الذي يشرب القهوة أكثر مما يأكل و يشرب الماء

- حسناً، رغم أني أحتسيت الكثير منها اليوم إلا أني لا أمل شربها يا أبي، لقد أصابتني عدوى القهوة منك

- مالي أراك يا بُني تشعر بالحزن، وكأن شيء ما ثقيلاً تحمله في صدرك

- لا شيء يا أبي فقط أفكر بالنتائج الذي لم تنتهي إلى الآن

- هل تعلم ما مشكلتك يا خالد؟ أنك لا تتقن الكذب، يفضحك وجه حينما تكذب

- أعدك يا أبي أن الأمر كله خير.

الحادي عشر مساءاً، حان الموعد المنتظر، وأخيراً إنها فاطمة تتصل، أتى خالد يركض باحثاً عن هاتفه كالمجنون، لتكون المكالمة الأولى بينهما

- مرحباً

- أهلا و سهلا يا أطول عذاب في حياتي

- أعتذر منك إن تأخرت بأعطائك أجابتي

- لا تقلقي أنا كلي فداء لعينيكِ، كل ما أريده الآن هو جوابكِ؟

- لقد فكرت ملياً ، لست وحدك من كنت تضمر الحب بقلبه ، لقد كنت أذوق نفس مرارة الانتظار طول السنين الفائتة، لا أجد شيء أقوله لك سوى أني، أحبكَ أيضاً.

أنتهت المكالمة المنتظرة، بفرحٍ يملئ قلبه، أحس بنشوة الحب بداخله،

الحب...

يشبه الخمر في كل شيء، مذاقٌ طيب، ولون جميل، وغياب للعقل، شارب الخمر و شارب الحب ، كلاهما لا يشعران بكل المعوقات حولهم، أنهم يعيشون في خيالٍ ساحر، عالم يحكمه البياض دون سواد، لا يصحوان إلا بعد صفعة مؤلمة تعيد له وعيه، وعقله، بأنه لا زال على كوكب الأرض، وليس في جنات عدن.

أستلقى على سريره وأفكاره تأخذه شرقاً و غرباً، ها هو اليوم يشعر بالحب كما كان يقرأه في الكتب و الروايات، شعور أولائك الشعراء الذين ماتوا هياماً في حبيباتهم،

ما أوفى الرجال حقاً، حينما يحبون بصدق يتحول حبهمإلى جنونٍ تام، تقول الكاتبة أحلام مستغانمي في كتابها بعنوان نسيان:

" أحببه كما لم تحب امرأة

وأنسيه كما ينسى الرجال"

معذرةً سيدة أحلام، ولكن هذه تهمة باطلة في حقنا نحن معشر الرجال، إن الرجال إذا أحبوا بصدق، لن ينسوا من أحبوا حتى تفارق روحهم الجسد، فإذا نظرتِ في التاريخ ستجدين أن المحبين الأوفياء كانوا من الرجال.

شهور من الحب الذي يتمنى أي شخص أن يعيشه، أقل ما يقال عمَ عاشه خالد في تلك الفترة، رسائل حب كثيرة، كتب وروايات ، هداية ورغم بساطتها إلا إنها تعني الكثير لخالد، لم يكن ليتصور بأنه سيعيش هذا الحب، حب عظيم ولكنه لم يكلل بأي لقاء.

- صباح الخير يا وردتي

- صباح النور يا عمري

- كيف حالكِ اليوم؟

- أنا بخير ما دمت أسمع صوتك، وأعلم أنك بخير ، وأنت كيف حالك؟

- إني مشتاقٌ وعندي لوعةٌ للقائكِ

- فإن كنت مشتاقاً فسر نحو بابنا

فنحن إلى ما كان من ذاك أشوقُ

- أريد أن نلتقي اليوم عند الخامسة، فالجو جميلٌ جداً اليوم، لم أركِ منذ الامتحان الأخير، لقد أشتقت لكِ شوقاً فاق كل الحدود

- حسنا، ولكن ليكن مكان لا يرانا أحد يعرفنا به

- بالطبع لا أريد لأحد أن يراكِ أبداً، إني أخاف عليكِ نسمة عابرة، فكيف إذا رآكِ أحد؟

- حسنا سأكون في الموعد المحدد إن شاء الله

- و أنا سأكون في انتظاركِ هناك

- إلى اللقاء

- إلى اللقاء

و أخيراً ..

الكلمة الأخيرة التي قالها بعد أن أغلق المكالمة، حان موعد اللقاء الأول لحبيبة قلبه ، فاطمة و أي فتاة مثل فاطمة.

أستعد لهذا اللقاء وكأنما يستعد للذهاب إلى حفل زفافه حقاً سيأتي ذلك اليوم الذي يجتمع هو و فاطمة في بيت واحد كعائلة واحد، و أي مكافئة أفضل من الزواج لقصة الحب العظيمة هذه.

خرج وهو بكامل أناقته، ينظر الناس إليه بدهشة، لقد كان يوحي وجهه بالسعادة الغامرة، لو يعلمون ذاك الشعور الذي يُحس به خالد لتمنوا أن يكونوا مكانه، وصل إلى المطعم الذي أتفقا أن يلتقيا به.

نظر إلى ساعته إنها الخامسة و سبعة دقائق، ولم تحضر فاطمة بعد، ترى هي زحمة الطريق؟ هل حصل لها مكروه و هي قادمة؟،

بدأت الأفكار السلبية تدور في خلده، كل الموجودين في المطعم لاحظوا علامات التوتر و القلق التي بدت ظاهرة على وجهه.

دخلت الفاطمة و الساعة كانت الخامسة وسبع عشرة دقيقة ، كانت أطول سبع عشرة دقيقة يعيشها خالد في حياته، تقترب فاطمة بخطوات خجولة و هي تنظر إلى خالد، وهو ينظر إليها ، أصبحت عيناهما تظهر بريق لا يعرف إلا عاشق مشتاقاً لمحبوبته، جلسا و هما ينظران إلى بعضيهما بصمت دون حتى إلقاء كلمات السلام و الترحيب

- كيف حالك؟

أول الكلمات التي خرجت من فم فاطمة، بعد صمت ساد الموقف لأكثر من دقيقة

- أ و أكون أحسن من هذا الحال؟ بربكِ قولي لي ما سر سحر عينيكِ هذا؟

احمرت خدود فاطمة خجلاً، لقد كان كثير التغزل بها و بجمالها و هدوئها، ولكنها المرة الأولى التي تسمعها منه على أرض الواقع.

- هل ستظل تتغزل بعيناي طوال الوقت؟

- لا استطيع أن أسيطر على نفسي يا وردتي، لا أدري كيف أفقد صوابي كلما آراكِ، أشعر أني غرقت في عالمٍ من السحر، ولكن هذا لا يوجد فيه سوى ساحرة واحدة، هي أنتِ

- كفاكَ مبالغة يا خالد، سيصيبني الغرور بسبب كثرة مدحك لي

- صدقيني يا فاطمة أني لا أجامل بكل كلمة غزل أصفكِ بها

- و أنتَ أيضاً يا خالد تستحق الغزل، لم يعد هناك رجالٌ أوفياء مثلك في هذا الزمان، وكأنك آخر الرجال من هذا الصنف، وفيك من الصفات التي تجعل أي فتاة تحبك، وتتمنى أن تكون لها يوماً من الأيام

- تخيلي كل هذه الصفات الذي نحملها ، و قد جمعنا الله سويةً ، ربما نكون آخر العشاق الذين سيعيشون هذا الحب الجميل الصادق

و في ظل هذه الحوارات العاطفية تشابكت أيديهما دون حتى أن يشعرا، ربما كان هذا التشابك الغير مقصود يعكس تشابك أرواحهما، أنتهى الحديث بينهما فنظرا إلى يديهما و هما متشابكتان ، سحبت فاطمة يدها بسرعة، وأصبح وجهها شديد الاحمرار، إنها المرة الأولى التي يمسك رجل غريب يدها بهذا الشكل.

نهضا عن كرسييهما للمغادرة ، فقال لها

- سأوصلك إلى مكان قريب من بيتك ثم أعود، لا أريدك أن تذهبي وحدك، أخاف عليكِ من الطريق

- ليس هنالك داعٍ يا خالد، أنا أذهب من هذا الطريق منذ زمن ولم يحصل أي مكروه لي

- لا تعاندي في هذا لقد قررت وأنتهى الأمر

كان أصراره أقوى من أن تعانده في رأيه، تمشي بجانبه و تشعر بالأمان للمرة الأولى ، تشعر أن هنالك من يخاف عليها، وكأنها قطعة من روحه.

وصلا إلى مكان قريب من بيتها ، لقد علم الآن سبب تأخرها دوماً بسبب ذلك البيت الذي هو في آخر المدينة

- حسناً يا حبيبي يكفي إلى هنا يمكنك العودة إلى المنزل

- طيب، وداعاً حبيبتي

تجمدت في مكانها، و هي تنظر إليه بذهول تام، و تقول في نفسها

" هل حقاً ما حصل الأن كان حقيقياً؟؟!!"

لقد كان وداعه قبلة طبعها على خدها المحمر كالجلنار، أي حبٍ هذا الذي يحمله في قلبه لها.

عادت إلى المنزل، و أستلقت على سريرها تمسك بخدها، و تلمس مكان القبلة، وكلما تتذكر تشعر بالاستغراب ، كيف أمتلك كل تلك الجرأة ليفعلها، لقد كان هذا اليوم مجنوناً بالفعل، تشعر و كأنها المرة الأولى التي تمتلك فيها خدً، تشعر للمرة الأولى بمعنى القبلة وما يمكن أن تمنحه من مشاعر.

كان هذا اللقاء باب فتح بعده الكثير من اللقاءات، و الكثير من الحب ، والكثير من التعلق،

كان خالد يفكر كثيراً بالزواج من فاطمة، كانت الأمور المادية هي العائق الوحيد لخالد، لقد مضى على هذا الحب ثلاث سنوات ، الى متى سنضل؟

يفكر في الزواج ليلاً نهارا، من أتي بالأموال لأتقدم لخطبتها، وإلى متى سأجعلها تنتظر نحن نكبر كل يوم لا بد من حل اليوم قبل غد

ربما كان السبب الأول الذي جعل خالد يفكر بالزواج، هو طريقة الحديث بينه و بين فاطمة، شعر و كأن فاطمة أصبحت باردة بمشاعرها تجاهه، لم تعد فاطمة تلك ذاتها إنها تتحول شيء فشيء، هل دخل قلب فاطمة شخص آخر؟!!

تلك الفكرة الأخيرة التي راودته جعلته يشعر بالجنون ، فإن كان محقاً بما يفكر به ، فالجنون سيرافقه لا محالة سينسى السعادة إلى الأبد، لا بد من حل في الصباح ، حتى لو كتبت على نفسي عقد عبودية لن أعود إلا و المال في يدي.

كثرة الأفكار المجنونة التي جاءته في تلك الليلة جعلت منه متعباً ، ألقى رأسه على الوسادة محاولاً النوم، متى سيظهر الصباح.

كان سلطان النوم أقوى من أفكاره تلك مما جعله يغرق في نومه لربما يرى في أحلامه ما يسره بعيداً عن واقعه الذي كان جميلاً، وربما في يومٍ وليلة يتحول الواقع إلى جحيم.

استيقظ في الصباح، و كان ما رآه على هاتف هي الشيء الذي كان يخشاه دوماً

****

الجمعة...

حيث الأمطار الغزيرة في بيروت، و بينما ينام خالد على سريره رن الهاتف بوقت مبكر ، استيقظ من نومه، نظر في شاشة هاتفه ليرى من المتصل ، رقم غريب لا اسم له، من هو يا ترى؟

أغلق الهاتف وعاد إلى نومه ، ولكن هاتفه لم يصمت، فهذا الرقم يتصل من جديد، ماذا يريد؟

- صباح الخير

- أهلاً من المتكلم ؟

- هل نسيت صوتي، ما عهدتك سريـع النسيان؟

ما هذا؟ ذلك الصوت ليس غريباً علي إني أعرفه جيداً، هل تكون....؟ كلا مستحيل أن تكون هي،

لكن ما المستحيل في ذلك؟ إنها حقاً هي أجل، أستحالة أن أنسى ذلك الصوت، ولكن ماذا تريد ؟

- خالد، هل لا زلت تسمعني على الخط؟

- أجل أسمعكِ، أهلاً بكِ ، وكيف لي أن أنسى هذا الصوت كيف حالكِ

- بخير نوعاً ما، سمعت بأنك سافرت إلى بيروت؟

- أجل استقريت هنا في بيروت، الحرب أنهكت البلاد، فحاولت الهروب قليلاً، لم أعد أطيق العيش هناك، جئت إلى هنا كي أنسى أيضاً

- تريد نسياني؟

- أجل لم يكن هنالك شيء غيرك أريد نسيانه، أين أختفيتِ كل هذه المدة؟

- هذه قصة طويلة، سأحكيها لك حين نلتقي

- نلتقي؟! أين؟ هل تريدين مني الذهاب إلى سوريا؟

- لن تحتاج إلى الذهاب لسوريا، أنا هنا في بيروت، لقد وصلت البارحة

- في بيروت! و كيف عرفتِ أني في بيروت؟، من أين أتيتِ برقم هاتفي؟

- لقد ألتقيت بعامر أخبرني بكل شيء، يجب أن أراك هنالك أمور كثيرة يجب أن نتحدث بها ، هل نستطيع أن نلتقي اليوم؟ ، إن لم يكن هناك ما يشغلك؟

- كلا، أنا متفرغ تماماً

- حسناً، سنلتقي إذن في السابعة مساءً، هل يناسبك الوقت؟

- بالطبع يناسبني، سأكون عند الموعد المحدد إن شاء الله

- سأرسل لك العنوان في رسالة ، إلى اللقاء

- إلى اللقاء

بدهشة واستغراب ، هل كنت أحلم ؟ هل ما زلت نائماً؟ كان هذا مفاجئاً نظر إلى غرفته المبعثرة، المملوءة بالعشوائية، والطاولة التي تعاني من فوضى الكتب، كلها كتب عن النسيان، لقد كانت محاولة بائسة، كان كل يوم يمر عليه يتعلق قلبه بها أكثر من السابق، يظن بعض الناس بأن النسيان شيء سهل، ولكنه صعب في عرف العاشقين، أن تنسى من تحب هو أمر مستحيل، وهذا الشيء لا يقتصر سواء على الرجل أو المرأة

يقول فيودور ديستوفيسكي:

"لا يمكنك نسيان امرأة أحببتها سوى أن تتزوجها، أما محاولاتك الأخرى ستبوء بالفشل"

****

(خالد أنا اعتذر، لا استطيع أن أكمل معك، أتمنى لك التوفيق في حياتك، و أن تجد الشريك المناسب لك، وداعاً)

تلك الرسالة التي تلقاها خالد في صباح ذلك اليوم المشؤوم، شعر أنه سيصاب بالجنون كيف ترحل هكذا؟

دون سبب، دون مبرر، دون حتى وداع

كم هو موجع أن تختفي هكذا دون مبرر، كان ذلك الأمر حين يفكر به خالد يمزق روحه، فكيف لحب حياته أن ينتهي بهذه الكيفية، دون مقدمات، دون أسباب، رحلت دون حتى وداع، كان وداعها الوحيد هو تلك الرسالة، وداع دون عناق، دون نبرة صوت، دون أي مشاعر، لم يكن هناك شيء يدل على الفراق، فكل شيء كان على ما يرام، بالأمس كان يخطط لمستقبله، فكيف أنقلب النعيم إلى جحيم....

ذهب خالد إلى بيتها يبحث ويسأل عنها كل من عرفها، ولكن لم يجد إلا جواباً واحداً " لا أعرف"

كان حبه أقوى من أن يمل من البحث عن فاطمة، التي أختفت بظروف غامضة، بات يبحث عن أي أثر حتى وإن ماتت المهم أن يجد جواباً غير لا أعرف، بحث كثيراً ولكن دون جدوى، تلك الفتاة هي و أهلها تبخروا، لم يبقى لهم أي أثر.

أنعزل بعيداً عن الناس، بعيداً عن أصدقائه، بعيداً عن أهله، صاحب الفم المبتسم فقد ابتسامته، صار حزيناً، كئيباً، فاقداً للأمل، يمشي بشوارع المدينة فيحس بوحدة بداخله، صارت المدينة تخنق أنفاسه، صار يرى الناس وحوشاً، وفي وجه كل امرأة يرى حب عمره، وحسرة حياته

فاطمة....

أين رحلتي وتركتني وحيداً؟

شعر بأن وجوده في هذه المدينة يجعله يفكر في فاطمة أكثر، وأن عليه الرحيل بعيداً من هنا، حتى يحاول نسيانها، وكيف ينساها؟ وهي كروحه لا تفارقه أبداً، ولكن حاول أن يبعد فقط حتى يصبح وحيداً بشكل تام

****

نظرة أخيرة في المرآة يرى نفسه فيها، حتى وهو بكامل أناقته كانت آثار الحزن قد رسمت على وجهه أثر لا يزول ،

تدق عقارب الساعة منبئةً باقتراب الموعد، يعد الثواني، وينظر للساعة كيف تتقدم ببطء، اللعنة كم أكره الانتظار، جاء الموعد ركب في سيارة أجرة، وصل إلى المكان المنتظر، كان مطعماً أشبه بقصور الملوك، فاخراً جداً، مطعمٌ لا يدخله إلا أصحاب المكانة العليا في المجتمع، أصحاب المجتمع المخملي كما يسمونه، لم يكن يتصور يوماً أنه سيدخل مثل هذا المكان الفاخر، فقد كان ذا دخلٍ محدود لا يسمح له دخول مثل هكذا أماكن.

دخل فرأى تعاملاً خاص و كأنه ملك، نظر إلى المكان والدهشة في عينيه، يحرك مقلتاه بحثاً عن الحبيبة العائدة من بعد الغياب و الاختفاء، وجهَ ناظريه إلى تلك السيدة هناك، تجلس وحدها على طاولة،

ذلك الوجه وجه فاطمة، أهلاً بكِ حبيبتي، يا وجعي، يا نارً تمزق أضلعي.

ولكنها لم تكن فاطمة التي كان يعرفها، فكيف لتلك الفتاة المحتشمة، أن تلبس ذلك الفستان، وشعرها منسكب على كتفيها، والكحل الأسود مرسومٌ بعينيها، تحمل بيدها سيجارة، وتنفث الدخان من شفتيها.

تقدم إليها بخطوات مترددة، وكأن ذلك الشوق المكبوت للقائها قد أختفى، فتلك الجالسة هناك ليست هي نفسها فاطمة التي عرفتها،

نظرت إليه ولمع بريق من عينيها، بريق شوق لمن كان يحبها يوماً، تلتقي به بعد فراق، وبعد سنين من العذاب، تصافحا واللهفة على وجه فاطمة، عكس الذي بدا فيه وجه خالد وكأنه نادم للمجيء.

وبعد تبادل التحية والسلام والسؤال عن الأحوال كان خالد مستعجلاً بالسؤال:

- أين ذهبتِ كل هذه المدة؟

- سأحكي لكَ كل شيء، وكل ما أريده منك أن تصغي جيداً لي

- وأنا كلي آذانٌ صاغية

- قبل أن أرسل لك تلك الرسالة كان هنالك شخص تقدم لخطبتي، جاءت به خالتي، وقد ذكرت له محاسني وجمالي، كان شخص ذا ثراءٍ فاحش، لا يهمه في الفتاة إلا جمالها، و مهما كان الثمن فهو لا يهتم لديه الكثير من المال

- ولكن هذا ليس مبر....

- أرجوك لا تقاطعني ودعني أكمل بعدها قل ما تشاء

- حسناً أكملِ

- لقد فكرت في نفسي أننا إذا تزوجنا أنا وأنت، لن نستطيع العيش برفاهية، ولن نجد في حياتنا سوى العوز والحاجة، وأنا أعرف كل أحوالك، ستكون حياتنا في المستقبل صعبة جداً، ففكرت بأني إذا تزوجت هذا الرجل سأخذ منه الكثير من المال، وبعدها سأعود إليك ونتزوج، أعطيك كل المال الذي أخذته ونعيش حياة سعيدة، لقد فكرت لمصلحتنا كلانا، ولكني لم أتحدث بالموضوع أمامك لأني أعرف أنك سترفض، لذا اشترطت عليه أن أخذ أهلي معي إلى باريس حيث مكان أقامته، ووضعت عليه مؤخراً كبيراً جداً، تزوجت وسافرت إليه، جسدي كان معه ولكن قلبي وعقلي كانا معك أنت، كان كل تفكيري بك، وعندما وصلت إلى هناك رأيت حياةً مختلفة، لقد كنا مدفونين بقبر الحياة،

لقد كان للحياة في باريس طعم آخر، لم نعرفه نحن بسبب أننا فقط لا نملك المال، فقررت تأخير الطلاق بعض الشيء، حتى استطيع أن أكون مثل هؤلاء الناس حولك، فأصبحت كما ترى أمامك، ولكن رغم كل ذلك، ورغم كل التغيير لم أنساك أبداً، كان قلبي دائماً ينبض بحبك

- تحبيني؟!! وكيف للحب والمال أن يجتمعا في قلب واحد؟ أن شهوة المال أقوى من شهوة الحب، وتحاولين أن تقنعيني بأنكِ فعلتِ كل هذا من أجلنا؟

- من أجل من إذن؟

- لقد فعلتِ من أجل نفسك، لقد أعماك المال فرميتِ حبنا في حاوية القمامة وفضلتِ المال عليه

- الحب، الحب، الحب، ما هو الحب؟، وعن أي حب تتحدث، وهل كان الحب سيطعمنا؟، لو بقيت على حبك هذا لكنا إلى الآن نجلس على ذات الرصيف نأكل تلك الشطائر المقززة التي نقنع أنفسنا أنها لذيذة لأننا لا نملك ثمن غيرها، ما قيمة الحب دون مال؟ ها أنت ما زلت على حالك لا تملك غرفة لك، تعيش على أوهام الحب، يجب أن تدرك بأن العالم اليوم قد تغير، وأصبح المال هو المطلب الأول لكل البشر، وأما حبك هذا تستطيع أن تكتبه

في روايات وتبيعه ، وتخدع به المراهقين الذين كنا نفكر مثلهم

- لم أكن أظن بأن المال يسيطر على الإنسان بهذا الشكل، ويغير من مبادئه، وأخلاقه، وتفكيره، وعقليته، ستعرفين قيمة الحب حين تشبعين من المال، عندها ستبدأين بالبحث عن الحب، ولكن بعد أن يفوت الأوان، بعد أن تموت مشاعركِ بسبب لهثك خلف الأموال

- دعنا من هذا الكلام كله، دعنا ننسى الماضي و ما عشناه، نفتخ صفحة جديدة، نكتب بها حبك وأموالي سنعيش حياة جميلة يتمناها أي شخص، ما رأيك؟

نظر إليها بحسرة وحزن، وابتسم ابتسامةً ساخرة مملوءة بالخذلان

- صفحة جديدة؟ كان ذلك سيكون لو أنكِ بقيتي فاطمة تلك التي أعرفها، فاطمة البريئة، الطيبة، ليس الطماعة صاحبة الأموال

نهض عن كرسيه متوجهاً إلى الخارج دون حتى أن ينظر إلى الوراء، والحزن مرسومٌ على وجهه، وعيناه مغرورقة بالدموع

و على الناحية الآخرى كانت فاطمة لا مبالية لكل ما حصل أمامها، أشعلت سيجارة، وطلبت فنجان آخر من القهوة ، ويبدو أنه كان محقاً حين قال لها أن لهثها خلف الأموال قتل مشاعرها.

أكمل طريقه و هو يحدث نفسه:

- هل هذه هي فاطمة التي كنت أذرف الدموع للقائها؟

ليتني ما ألتقيتها، ليتها بقيت غائبة، ليتني أبقيت على تلك الصورة الجميلة لها في ذاكرتي، ليتنا ما ألتقينا....

تمت بحمدالله